المرجعيّة التاريخية في الرواية الجزائريّة المعاصرة
- الدّيوان الإسبرطي لعبد الوهاب عيساوي أنموذجا -

The historical reference in the Algerian contemporary novel Abd Al-wahhab Issawi's (Al-Diwan El Esparti) as a model.

د. سهام حشايشي *

جامعة الجيلالي بونعامة/ خميس مليانة (الجزائر)، sihem.hechaichi@gmail.com

تاريخ الارسال: 2020/12/09 تاريخ القبول 2021/03/19 تاريخ النشر 2021/12/27

ملخص:

اهتمّت هذه الدراسة بتقصّي البعد المرجعي في رواية (الديوان الإسبرطي)، حيث عرض كاتبها جانبا مهمّا من تاريخ الجزائر، من خلال خطاب سرديّ يتراوح بين التخييل والواقع، وبالرغم من الاختلاف الحاصل حول مسألة تجنيس الرواية التاريخية، والإشكال المطروح حول الفرق بينها وبين الرواية الواقعية أو كما يسمّيها بعضهم الرواية التي توظّف التّاريخ، غير أنّ الكاتب طالعنا بمسرود فنّي حافل بالتخييل الفنّي وبالأحداث التاريخية ذات المرجعيّة الواقعيّة، متجاوزا بذلك مقولة الجنس والنوع وغيرهما، كاشفا جوانب فكرية ونفسية مهمّة لشخصيات مختلفة عبّرت عن آرائها حول الاحتلال الفرنسي وقبله الهيمنة العثمانية على الجزائر، معتمدا تقنية تعدّد الأصوات داخل النص الواحد حتى تتسنى له مساءلة التاريخ عبر وجهات نظر متباينة.

الكلمات المفتاحية: الرواية، التاريخ، المرجعية، التخييل، الشخصية.

Abstract:

This study has given much importance of the distant reference in the novel of (Diwan El Esbati), in which the writer has showed an important side of the Algerian history trough a narrative speech of imagination and reality in spite of the difference between the matter of the reference of the historical novel and plat states between the real novel which some novelists regard it as functioning history, However, the writer informed us about narrative art full of imagination and historical events which has a realistic reference without taking care of sex and quality, he also showed us mental and psychological side of different personalities who has expressed their ideas about the French colonialism as well as the previous Otman authorities in Algeria,The writer has depended on the technique of several sounds in the same text to enable himself to wonder history through different perspectives.

Key words: Novel, History, Reference, Imagination, Personality.

* المؤلف المرسل.

1. مقدمة:

تحكي رواية **الدّيوان الإسبرطي** للكاتب الجزائري **عبد الوهاب عيساوي** فترة مهمة من التاريخ الجزائري، الممتدة من 1815 إلى غاية 1833، حيث كانت المحروسة الجزائر آنذاك تحت الهيمنة العثمانية ومحلّ أطماع الفرنسيين، وقد قُسّمت الرواية إلى خمسة فصول، كلّ فصل تظهر فيه شخصية جديدة توجّه العملية السرديّة، وعن تسميتها بالدّيوان الإسبرطي، فلعلّها إحالة على صرامة الحكم العسكري الذي طال الجزائر إبّان الهيمنة العثمانية، وقد أشار الكاتب إلى ذلك بقوله: "الاسبرطيون كانوا أشبه بالعثمانيين في أفريقية، أمّة لا تقوم إلّا على قوّة السلاح"[1]، وقد رجّح كثير من المؤرّخين فكرة أنّ "النظام العثماني كان قائما على القوة العسكرية والروح العسكرية"[2]، في الوقت الذي يفنّد فيه بعضهم تلك الآراء، ومن وجهة نظري أنّ التسلّط العسكري الذي فرضته حكومة فرنسا على الجزائر أشدّ وقعا وأوسع تأثيرا من الحكم العثماني بل ومن الحكم العسكري بإسبرطة في حدّ ذاتها.

يُلاحظ على هذا النص، تعدّدية الأصوات، وبالتالي تعدّد الرؤى ووجهات النظر، حول فترة مهمّة من تاريخ الجزائر، فنجد شخصية **ديبون** الصحفي الذي قدِم من فرنسا إلى الجزائر مع ركب حملة الاحتلال، وقد صوّره الكاتب على أنّه مُحبّ ومتعاطف مع الشعب الجزائري، وشخصية **كافيار** الجندي الفرنسي الأسير لدى الأتراك في الجزائر، وكان حقودا ميّالا إلى العنف والحكم العسكري المتعسف، ثمّ شخصية **حمّة السلّاوي** المناضل الجزائري الثائر، والغيور على أرضه والمتمسّك بمواقفه الرافضة للحكم التركي والفرنسي على السواء، وشخصية **ابن ميّار** السياسي المقرّب من الجزائريين لكنه متضامن، في بعض الأحيان، مع الأتراك وطبيعة حكمهم، وأخيرا، شخصية **دوجة** المرأة الجزائرية المتواضعة، ذات الثقافة المحدودة، والتي قست عليها الظروف الاجتماعية، حتى رمت بها إلى الشارع، وهي تؤمن بأنّ الأوضاع في (المحروسة) يصعب فهمها ولا يمكن تغيير الواقع المفروض عليها.

أسهم التعدّد الصوتي للشخصيات الساردة، أو الرواة، في "تشكيل بنية بولوفونية تمثّل مرتكزا للبثّ السردي يناسب تنوّع الآراء وتمايز الاتجاهات إزاء المواقف والوقائع التاريخية، إذ إنّ للتاريخ وجوها متعدّدة؛ فتمثّل أصوات السرد شخوص الحكاية الروائية، اتّجاهات تاريخية متمايزة، وتنوّعا رؤيويّا وفق منظور درامي في الطرح السردي"[3]، وبعيدا عن التحليل النفسي والأيديولوجي لتلك الشخصيات، والذي يتطلّب دراسة موسّعة، سنحاول الإجابة عن سؤال:

هل كان الكاتب ملتزما فقط بالمرجعية الواقعية للمواقف والأحداث التاريخية المسرودة، أم أنّه حاول إعادة قراءتها من وجهة نظر جديدة تهدف إلى تقديمها كأحداث قامت على مسبّبات فكرية ونفسية واجتماعية؟ كما نتطلع إلى الإجابة عن سؤال التجنيس لرواية (الديوان الإسبرطي) أهي رواية تاريخية أم رواية واقعيّة وظّفت التاريخ؟ انطلاقا من كون الخطاب الروائي محلّ الدّراسة، يهدف إلى تقديم طرح سردي درامي جديد ينبعث من ذاكرة تتراوح مواقفها ما بين الهزيمة والانتصار، وبين المشروعية والتخوين، وبين الرفض والتأييد.

2. المرجعيّة التاريخيّة في رواية الدّيوان الإسبرطي:

يتّفق كثير من النقاد على أنّ الرواية التاريخية هي خطاب سردي يجمع بين الواقعيّة والتخييل، لكنّها تستند أكثر على أحداث ومواقف حقيقية وقعت في إطار زمني ومكاني معيّنين، في حين أنّ الرواية الواقعية تجمع بين الواقعية والتخييل، غير أنّ واقعيّتها تكون بدرجة أقلّ مقارنة مع الجانب التخييلي فيها، حيث يصعب توثيق أحداثها ومواقفها، بخلاف نظيرتها التاريخية، "فالرواية التاريخية نازعت الرواية الواقعية مكانتها، وأثبتت قدرتها على أن تكون أكثر منها تأصّلا في ثرى الواقع"[4]، والرواية الواقعية هنا، يقصد بها تلك الروايات التي توظّف التاريخ من منظور ذاتي تخييلي فتجعل منه وسيلة لتحقيق غاية، ولا يكون غاية في حدّ ذاته.

تنفرد الرواية التاريخية بخصوصية السرد المرجعي، بمعنى أنّ مرجعيتها التاريخية "تتّصل اتّصالا وثيقا بحساسية الذاكرة ونموذجها ومدى قوّة حضورها في الميدان النصّي، لأنّها الآلة المركزيّة المنفتحة على الماضي والمستدعية لكمونات التاريخ التي يستند إليها الروائي... يتقدّم إليها الروائي لينصّصها ويحوّلها من منتج تاريخي لابث في الذاكرة إلى منتج جمالي يحيا في مدوّنة روائيّة"[5]، إلى جانب ذلك، فإنّ المرجعيّة في الرواية التاريخية تكون فِعليّة وقابلة لإثبات حقيقتها الماديّة، أمّا في الرواية الواقعية، تكون موشّحة بالتخييل الإبداعي، ممّا يفضي إلى التشكيك في صحّة وجودها، وفي رواية (الديوان الإسبرطي)، لاحظنا حضور كمّ كبير من الأحداث التاريخية التي جرت في الواقع، بشهادة أبرز كتب التاريخ، وقد عرضها الكاتب بطريقة تشي بحقيقتها الفعليّة، لأنّه بإمكان القارئ معرفة مدى مطابقتها للواقع من خلال بعض الإحالات المرجعيّة التي تتخلّل الرواية، بالرغم من وجود الجانب التخييلي فيها.

وتأسيسا على ما سبق طرحه، سنحاول ضمن هذا التحليل السردي استنطاق المعطيات التاريخية لرواية (الدّيوان الإسبرطي)، والوقوف عند تخوم تصنيفها المستعصي، الذي طرح إشكالية كونها رواية تاريخية استنادا إلى المرجع، برغم قاعدتها التخييلية المؤثّثة لها، والتي يفرضها منطق الكتابة الروائية، أم أنّها رواية واقعيّة، توظّف التاريخ من منظور ذاتي تخييليّ، كما سنحاول تقديم أبرز الأحداث والشخصيات والوقائع المبثوثة ضمن صفحاتها السردية، والتي وجدنا لها أثرا مرجعيّا في كتب التاريخ:

1.2 . استغلال العظام البشرية للمسلمين الجزائريين في تصفية السكر الفرنسي:

تحدث الكاتب في الصفحات الأولى من الرواية عن تقرير الطبيب الذي يؤكّد الإشاعات التي انتشرت في مارسيليا حول كون المصنّعين الأجانب يعمدون إلى مزج مسحوق العظام البشرية لتبييض مادة السكر، ولما سلّم الطبيب تقريره الطبّي للصحفي بعد صدمته الكبيرة من صحة الإشاعة، حرّر الصحفي مقالا حول الموضوع لينشره في جريدة (لوسيمافور دو مارساي)، يقول:

"مرسيليا مارس 1833... اثنا عشر عاما انقضت على موت **نابليون** وثلاث سنوات بعد سقوط الجزائر... أحثّ الخطى وأنعطف يمينا إلى شارع جانبيّ... وما إن أعبر مدخله حتى تقابلني لافتة الجريدة أتهجى حروفها:

جريدة (لوسيمافور دو مارساي)... بصعوبة فرغتُ منها وسلّمتُ المقال إلى المحرّر، وحملت نفسي وفررت خارج مبنى الجريدة... وفي اليوم الثاني خمّنتُ أنّ هناك ضجيجا سينبعث بعد قراءة المقال، تناولتُ الجريدة من أوّل الأكشاك، ورأيت العنوان بحجمه الكبير في الصفحة الأولى، كان الناس من حولي يتهافتون على النسخ حتى لم تبق ثمة واحدة، وكلّ من يفرغ منه يسير مسرعا تجاه الميناء..."[6]

ثمّ يواصل الكاتب حديثه عن تفاصيل التحقيق في تلك المسألة، وعن ردود الأفعال الصادرة عن الرأي العام الفرنسي حولها، مشيرا، عبر إيحاءات أسلوبية، إلى استمرار الحكومة الفرنسية في التجارة بعظام المسلمين، برغم انفضاح أمرهم، وهو ما يتجلى في عبارة (لن تتوقّف تجارة العظام) كما وردت في المقطع الآتي:

"بالأمس الكُلّ ينتفض من أجل سمعة هذه الأمة العظيمة، حين أُهين قنصلها، واليوم هل تراهم ينتفضون من أجل الشيء نفسه، صناديق من عظام الأطفال والشيوخ تُسحق لتزيد السكّر بياضا؟... اكتظّ الرصيف بالناس وتعالت أصواتهم هناك، ثمّ تبدّدت وهم يلتفتون إلى العربات التي وصلت... فُتح باب أوّلها ونزل الوكيل المدنيّ يرافقه الطبيب وانتظرا حتّى انضمّ إليهما محافظ الشرطة وشيخ البلديّة، وصعدوا إلى الباخرة، ساعة من الغياب ثمّ رأيناهم في نزولهم، قرأ الناس كلّ شيء على وجوههم، ضجّوا ثمّ صمتوا... وعادوا يراقبون العربات وهي تغادر الرصيف مخلّفة وراءها عددا من الشرطة على متن (بون جوزيف)... التفتُّ ووجدتُ الطبيب هناك... ثمّ همس حتى بالكاد سمعته: لن تتوقّف تجارة العظام كن متيقّنا من هذا."[7]

ورد في كثير من الموسوعات العلميّة والمواقع الالكترونية أنّ فرنسا من بين الدّول التي تستعمل عظام الحيوانات بعد حرقها (الفحم الحيواني) في عملية تبييض السكّر، حيث وبعد معالجته كيميائيا، يتمّ تكريره عبر مصفاة خاصّة، من خلال مزجه مع مسحوق العظام الحيوانية ومواد أخرى لتبييضه، ثمّ تتكثّف بلّورات السكر بفعل الحرارة، لكنّ المسحوق المستعمل في عملية التبييض، لا يمرّ من المصفاة، وإنّما تمرّ مادة السكر الأبيض فقط.

وقد نُشر في العدد الأوّل من المجلة التاريخية المغربية، مقالا للمؤرّخ الفرنسي **مرسال آمري** (1985/1899) يفصّل فيه الحديث عن مسألة الاتّجار بعظام المسلمين، واستغلالها في تصفية السكّر، فكتب:

"وبعد استقرار الفرنسيين وصل إلى ولاية الجزائر عدد كبير من الأجانب المعوزين والذين كانوا يأملون الاستفادة من الوضعية، ومن ضمن هؤلاء، المالطيون والمسيحيون الذين كانوا يتكلمون لغة قريبة من عربية الجزائر، وحيث كانوا يأملون كسب عيشهم باعتبارهم الوسائط بين التجار الفرنسيين والشعب المسلم، على أن عمليتهم الجريئة كانت ولاشكّ استغلال القبور، عرض هؤلاء المالطيون خدماتهم على رجال الصناعة في (مرسيليا) والذين كانوا يحتاجون إلى فحم العظام لتبييض السكر، وقد أظهروا استعدادهم لإرسال عظام الحيوانات التي يحتاجونها، ولتستكمل حمولة البواخر بأقلّ التكاليف، كانوا يجمعون العظام البشرية من المقابر"[8]، في هذه المقدّمة توضيح بأنّ التجار الأجانب الذين لعبوا دور الوساطة بين تجار فرنسا والشعب المسلم، هم من اقترح استغلال عظام المسلمين في تلك التجارة المخزية، ثمّ يواصل المؤرخ **مرسال آمري** حديثه عن الفضيحة وصداها بين أفراد الشعب الفرنسي:

"..وقد نجحت العملية حتى اللحظة التي أعلمت فيها جريدة (لوسيمافور دو مارساي Le Sémaphore De Marseille)، قراءها في مارس 1833، بهذه التجارة المشؤومة، ولما علم الطبيب **سيقو Dr. Segaud** بهذا الحادث، أجرى تحقيقا من تلقاء نفسه في الموضوع، وقد أرسل إلى نفس الجريدة بالرسالة التالية التي أحدثت تأثيرا كبيرا: مرسيليا في 1 مارس 1833، لقد علمتُ عن طريق الإشاعات أنّ عظاما بشريّة استُخدمت لصنع الفحم الحيواني Charbon animal، ومدفوعا بشعور العطف على الإنسانية، أردتُ إقناع نفسي إلى أيّ درجة يمكن أن نثق في مثل هذه الإشاعات، وقد قمتُ بزيارة الباخرة المدفعية (لابون جوزافين La Bonne Joséphine)... والقادمة من (الجزائر)، حيث كانت حمولتها من العظام، وبعد أن قمت بفحص دقيق جدا لكمية العظام الموجودة، تعرّفت على بعض منها، ثبت لديّ أنّها من النوع البشري"[9].

ذُكرت هذه الحادثة في مراجع تاريخية أخرى، منها كتاب (كفاح الشعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي) **لعلي محمد محمد صلابي**، حيث أكّد أنّ تلك العظام البشرية لم تكن موجّهة لتبييض السكر فحسب، بل حتى للبناء وصنع السماد وغيرها من الأعمال المشبوهة، يقول:

"وتجرّؤوا كذلك على نبش القبور لاستخراج الآجر والأحجار للبناء، ولأخذ عظام الموتى لصنع السماد وبيعها في مدينة مرسيليا"[10]، فهذه العبارة تشير إلى أنّ قبور المسلمين الجزائريين، لم تُنتهك لغرض واحد، وإنّما لأغراض متعدّدة، من بينها السطو على آجر القبور وحجارتها لاستعمالها في عمليات البناء وترصيف الطرقات، وكذلك استغلال عظام المسلمين في صنع السماد وبيعه في فرنسا، فكانت هذه التجاوزات غير الإنسانية وغير الأخلاقية تصدر عن حكومة طالما ادّعت المدنيّة والتحضّر واحترام حقوق الإنسان.

وورد في المرجع نفسه، "وشاع بين الناس أنّ عظام موتى هذه المقابر شُحنت لفرنسا لاستعمالها في صناعة السكر فقد ذكر **ش.أ. جوليان**: أنّ طبيبا فرنسيّا بمرسيليا صرّح أنّه شاهد على (الباخرة جوزيفين)، في مارس 1833، وجود شحنة آتية من (الجزائر)، تتكون من عظام بشرية، جماجم وفكاك وعظام فخذ وعظام زند وغيرها، وكلّها عظام بشريّة... وشاع أنّ هذه العظام المستخرجة من المقابر الجزائرية تُستعمل في صناعة السكر الأبيض"[11]، فكانت تلك الوثائق التاريخية، شاهدة على واحدة من أخزى وأشنع جرائم الاحتلال الفرنسي ضدّ الإنسانية، تنمّ عن حقد دفين للإسلام والمسلمين، فبعد السطو على الأراضي وتحويل المساجد إلى كنائس...انتقل شؤم الاحتلال إلى مقابر المسلمين.

إضاءة: حرص الكاتب على توثيق الحادثة بالزمان والمكان (مرسيليا، مارس 1833)، كما ذكر الإسم الحقيقي للجريدة التي نشرت الخبر، وهي (Le Sémaphore De Marseille)، لكنّه لم يتطرّق إلى تفاصيل الشائعة لأنّ الفكرة المراد تمريرها على لسان الصحفي الذي حرّر المقال، ليست الحادثة في حدّ ذاتها، وإنّما ردود الأفعال تجاهها ومؤدّى الفكرة هو: هل سينتفض الفرنسيون لهذه الحادثة المخزية، وهي استغلال عظام المسلمين في أعمال مشبوهة، كما انتفضوا عندما طُرد القنصل **ديفال** من الجزائر قبل ثلاث سنوات؟، وكانت

الإجابة في قوله: (قرأ الناس كلّ شيء على وجوههم، ضجّوا ثمّ صمتوا..)، فالصمت هنا يُحيل على تجاهل الرأي العام الفرنسي للسياسات المشبوهة التي تقوم بها حكومتهم في حقّ مسلمي الجزائر.

2.2 . معركة واترلو وهزيمة نابليون بونابرت:

عرض الكاتب في روايته معركةً تاريخية كبرى جرت بين الجيش الفرنسي بقيادة **نابوليون بونابرت** وبين الإنكليز سنة 1815، قرب بروكسل، وهُزم فيها **نابليون** هزيمة غير متوقّعة، يقول الكاتب:

"هُزم **نابليون** في (واترلو)، واحتفظتَ به منتصرا في قلبك، بينما مازلتُ أراه مجنونا كاد يقود العالم إلى الهلاك وانتصرتَ للملك الجديد، ومازلتُ وفيّا لعائلة البوربون"[12]، فنلاحظ من خلال هذا المقطع من الرواية، أنّ النص التاريخي يتداخل مع النص الروائي لدرجة التماهي، حيث لم نقع في متن الرواية على توثيق مرجعيّ لتلك الأحداث، "ويرد هذا التماهي غالبا على لسان الرّاوي المحيط بكلّ شيء، الذي يستخدم ثقافته وهو يروي أحداث الرواية... وإذا كان بعض الروائيين قد وجد أنّه من الضروريّ توثيق المعلومات التاريخية الموظّفة في حال نقل النص التاريخي بحرفيّته إلى الرواية، فثمّة روائيّون لم يجدوا ضرورة لذلك في حال كان النص التاريخي متماهيا مع النص الروائي، ففي النصّ التاريخي المتماهي في السرد الروائي يصبح كلام الشخصية الروائية التي تسرد أحداث التاريخ، إما بوصفها شاهدة عليها... وإمّا بوصفها شخصية مثقفة اطّلعت على أحداث التاريخ"[13]، وفي هذه الحالة، يبدو أنّ إلغاء التوثيق المرجعي للأحداث التاريخية في متن الرواية، يجعل منها نصّا متماهيا مع التاريخ، يؤثّثه التخييل الإبداعي المترامي بين ثنايا الأسلوب السردي.

وعن التوثيق التاريخيّ لتلك المعركة الحاسمة، فقد تحدّث الباحث **إلياس أبو شبكة** في مدوّنته (تاريخ نابليون بونابرت 1821/1769) عنها فقال:

"كان على **نابليون** بعد أن انتصر ذلك الانتصار الباهر، أن يشهد في ساحات (واترلو) آخر نكبة يُضمرها له الحظّ العاثر، ففي الثامن عشر من شهر حزيران، بعد معركة دامت ثماني ساعات متوالية خُيّل للجيش الفرنسي أنّ الفوز سيكون إلى جانبه... إلا أنّ هجوما عالجته بعض كتائب انكليزية... وما هي إلّا هنيهة حتى شمل الخوف جميع الجنود وتفرّقوا تفرّقا فظيعا... وكلّ ما كان في ساحة القتال فقد بقي في قبضة العدوّ.. إنّ هفوة صدرت من المارشال **غروشي** اشتركت في القضاء على جيوش الامبراطور... هذه الهفوة التي ارتكبها المارشال فقد غيّرت بأقلّ من ساعة، ليس مقدّرات موقعة هائلة فحسب، بل مقدّرات أوربّا بأسرها"[14]، ويقصد بتغيير مقدّرات أوربا بأسرها، تحوّل نظام الحكم من الإمبراطورية النابوليونية إلى المَلَكيّة، أين استعاد (آل بوربون) حكمهم الملكي الذي أطاح به **نابليون** من قبل، و(آل بوربون) هم أسرة ملكية حكمت فرنسا منذ 1268م، ويعود أصل التسمية إلى بلدة صغيرة بوسط فرنسا اسمها بوربون لارشامبو.

يُواصل الباحث **إلياس أبو شبكة** سرده لقصة تنازل **نابليون** عن العرش، فيقول:

"إلّا أنّ ممثّلي فرنسا كانوا قد أذعنوا لإشارة **لافييت**، الذي قال: إنّ وجود **نابليون** عالة على سياسة فرنسا، فهلّل البوربونيون والغرباء لهذه الفكرة، ورحبوا بها أيّما ترحيب، أمّا الرجال المخلصين **لنابليون** فقد تركوا لليأس سبيلا إليهم ونصحوا الإمبراطور بأن يرضخ للقدر المحتوم... عندها شعر **نابليون** بأنّ القضاء أصبح لا مردّ له، وأنّ أصدقاءه وأعداءه يُجمعون الكلمة على ضرورة تنازله، فصرّح أنّه عزم على التنازل لابنه..."[15] ولما رفض طلبه من طرف أعداء السلالة الامبراطوريّة، التي قرّرت تشكيل حكومة مؤقتة بدل تزكية **بونابرت الثاني** (الابن)، فغضب **نابليون** غضبا شديدا وقرّر اللجوء إلى انكلترا طالبا حمايتها..."وما لبث أن صحّت عزيمته على الالتجاء إلى كرم الشعب الانجليزي وحلوله ضيفا على (انجلترا)"[16]... لكنّ انجلترا قررت نفيه إلى جزيرة بعيدة حتى يكون النفي أشدّ ظلما على **نابليون**، فأرسلت إليه "أمرا وزاريّا يعيّن جزيرة (سانت هيلين) سكنا للجنرال **بونابرت**... وفي الرابع من شهر آب خرجت الباخرة (بللروفون) من المرفأ، ولكنها لم تتّجه إلى الجنوب بل سارت إلى مياه (المانش) فأدرك **نابليون** أنّه سينتقل إلى باخرة أخرى، وهي (النورثنبرلان) التي ستقلّه إلى (سانت هيلين)"[17]، فكانت تلك هي تفاصيل الأيام الأخيرة من حكم الإمبراطور **نابليون بونابرت**، والتي أُشير إليها في رواية (الديوان الأسبرطي) بعبارات مقتضبة هي:

"بعد أيام الاختباء سمعت بأنّ **نابليون** قد سلّم نفسه للإنجليز الذين نفوه إلى أقصى جزيرة في الأطلسيّ، وأنّ ضابطه المفضّل قد أعدمه الملك"[18].

أمّا عن قصة إعدام ضابطه المفضّل، التي أشار إليها كاتب الرواية، فقد تحدّث عنها كذلك الباحث **إلياس أبو شبكة**، إذ كتب:

"حملت الجرائد إلى (سانت هيلين) نبأ موت **مورات**... فلمّا قرأ **لاس كاز** على مسمع من الإمبراطور الجريدة التي تحمل نبأ موت ملك (نابوللي) **مورات**، تلك الميتة الفظيعة، أخذ **نابليون** يده بشدّة وصرخ قائلا: لقد كان (الكالابريون) أكثر إنسانية وكرما من الذين أرسلوني إلى هذا المكان.."[19]، وفي هامش الصفحة نفسها ذكر الباحث أنّه عندما سقطت الإمبراطورية سنة 1815، اضطرّ **مورات** إلى التخلّي عن مملكة (نابوللي)، ثمّ حاول أن يسترجعها ولكنّه قُبض عليه في (بيزو) وحُكم عليه بالإعدام.

إضاءة: تطرّق كاتب رواية (الديوان الإسبرطي) في أكثر من موضع، إلى واقعة (واترلو) وانهزام **نابليون** فيها، ثمّ تحدّث عن نفيه إلى جزيرة قصيّة في المحيط الأطلسي، وبعدها إعدام ضابطه المفضّل، وهي في مجملها وقائع حدثت فعلا وبشهادة كتب التاريخ، مما يحيل على وجود ثقافة تاريخية عميقة أثّثت لهذا النص الروائي بأدوات مرجعيّة مهمّة، كما لاحظنا التزاما بأدوات الكتابة الروائية ومراعاةً لخصوصيتها من الناحية الأسلوبية، حيث لم يرِد تفصيل مسهب لتلك الوقائع، مثلما نجده في الخطابات التاريخية، ولعلّ ذلك يعود أيضا إلى خصوصية العامل الزمني الذي سرد به الكاتب أحداث الرواية، ونعلم يقينا ما لعنصر الزمن في الخطابات السردية من أهميّة في ترتيب مكوّناتها الفنيّة الدّاخليّة.

يؤدّي الزمن دورا حاسما في عمليّة تصنيف الرواية التاريخية من الرواية الواقعية، فإذا كان بعض الروائيين يعمد إلى تحويل السرد التاريخي إلى سرد روائي عن طريق إحداث تغيير أسلوبي في الخصائص المميزة للسرد التاريخي لاسيما على مستوى الزمن وطريقة استدعاء الشخصيات والأحداث، فإنّ النقاد أولوا أهميّة كبيرة لعنصر الزمن، في عملية تصنيف الرواية التاريخية من الرواية الواقعية، وذلك استنادا إلى كون "الرواية التاريخية تحافظ على التسلسل الزمني في عرض الأحداث، في حين أنّ الرواية التي توظف التاريخ لا تحافظ على التسلسل الزمني"[20]، وذلك لِما للنمط الثاني من الرواية (أي الرواية الواقعية) من خصوصية متفردة في التعامل مع عنصر الزمن تجعلها بمنأى عن نمطية التراتب الزمني في الخطاب التاريخي، الذي يهيمن على سرد الرواية التاريخية، وإذا كانت "الرواية التاريخية تستمدّ خصائصها من الخطاب الذي يراعي التسلسل الزمني في عرض الأحداث"[21]، فإنّ الرواية الواقعية، تقوم أساسا على عامل التشظي الزمني القائم على عناصر الاستباق والاسترجاع والحذف والخلاصة وغيرها من المفارقات الزمنية التي يشحّ وجودها في الرواية التاريخية بحكم الخطيّة أو التتابع الزمني للأحداث فيها، ولكنّه من اللافت وجودها ضمن مدوّنة (الديوان الإسبرطي) ممّا يشي بكونها رواية واقعية لا رواية تاريخية بالمفهوم التقليدي، فعندما تحدّث الكاتب عن هزيمة **نابليون**، ثمّ تنازله عن العرش، بعدها نفيه إلى جزيرة قصيّة، ثمّ إعدام صديقه المقرّب... كلّها وقائع حافلة بالتفاصيل، واستغرق زمن حصولها وقتا طويلا، لكن مع تقنيات الحذف والخلاصة والاسترجاع وغيرها من العناصر المصاحبة لتشظي الزمن في الرواية، تمكّن الكاتب من إضافة خصوصيّة جماليّة لنصه الروائي جعلته ينأى بطريقة ما، عن الرواية التاريخية التقليدية، التي يجري سرد الأحداث فيها وفق تسلسل زمنيّ منطقيّ متراتب.

3.2 . المور ، أعيان الجزائر:

تطرّق الكاتب في الرواية، إلى شريحة شعبية من سكان شمال أفريقية، وهم (المور، maures, moors)، وهم السكان الأصليين للأندلس، ويُشاع أنّهم مزيج من العرب والأمازيغ وحتى الأوروبيين، لكنهم مسلمين هاجروا من الأندلس، إلى شمال أفريقية بعد اضطهاد الصليبيين في إسبانيا لهم، لكنّ فرنسا تستعمل هذا المصطلح بطريقة مهينة تتضمّن تمييزا عرقيا دينيا، كإشارة منها إلى قومٍ برابرة مسلمين غير متحضّرين، يقول كاتب الرواية:

"هؤلاء المور لم يكفهم الأمان الذي أعطيناه لهم، والآن صاروا يكتبون العرائض يريدون الأملاك التي خلفها الأتراك، كم كانت مخزية تلك الوثيقة التي وقّعها القائد **بورمون** مع **الباشا**، ما الذي جعله يمنحهم كل تلك المزايا؟ المساجد والزوايا، مزايا لم تكن لتمنح لمسيحي آمن في عرض المتوسط"[22]، حيث أشار إليهم الكاتب من وجهة نظر الضابط الفرنسي **كافيار**، وهي نظرة مشفوعة بازدراء واحتقار واضحين، كما تحدّث عن وثيقة الاستسلام التي وقعها الدّاي العثماني، لا من حيث إنّها وثيقة عار، مهّدت لاحتلال الجزائر، ولكن من حيث إنّها منحت امتيازات غير مستحقّة **للمور**، ولم تُمنح لأمثالهم من المسيحيين.

تحدّثت كتب التاريخ **عن أصل المور**، حيث أشار الباحث والمؤرّخ الجزائري **أبو القاسم سعد الله** إلى فئة **المور**، إذ قال عنهم: "كانت اسبانيا هي أكثر الدول المغضوب عليها من الجزائريين، فكثير منهم كانوا معروفين بالمور: أهالي إفريقيا الشمالية الذين عاشوا في الأندلس عدة قرون والذين طردهم الصليبيون الاسبانيون أثناء وبعد الحكم الإسلامي في اسبانيا"[23]، ويتحدّث عنهم في مرجع آخر، يقول: "وعن أعيان العرب الحضريين (**المور**)..."[24]، ويبدو من كلام **أبو القاسم سعد الله** أنّ **المور** كانوا من الأعيان الحضريين في شمال أفريقية، وفي الجزائر تحديدا، والظاهر أنّهم كانوا يتمتّعون بمكانة اجتماعية مرموقة، وهو الأمر الذي يؤكّده الباحث **علي محمد محمد الصلابي** بقوله:

"لكن أعيان الجزائر الذين كانوا يشكّلون طبقة غنية منحدرة الأصل من أهل البلاد ومن مهاجري الأندلس قد خاب أملهم في الفرنسيين... وقد اندهشوا حين اكتشفوا أنّ السلطات الفرنسية تُعطي عهد الأمان وتنقضه"[25]، فتلك الطبقة الغنية التي يمثّلها مهاجري الأندلس، والتي حصلت على عهد الأمان وعلى امتيازات أخرى من فرنسا، هي فئة **المور** التي ذكرها الكاتب في الرواية.

- **المور يشتكون ويكتبون العرائض:** يواصل المؤرخ **أبو القاسم سعد الله** عرضه لتفاصيل الامتيازات التي حصل عليها **المور** من الجانب الفرنسي، ثمّ سرعان ما انتُزعت منهم، يقول:

"حضر الجزائر كانوا طبقة غنية منحدرة من أهل البلاد ومن مهاجري الأندلس... وبمجرد استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر، نحّوا الأتراك عن الحكم، وأسندوا بعض المناصب لهؤلاء الحضر... لكن هذه الطبقة سرعان ما اكتشفت أنها كانت مخطئة في اعتقادها أن فرنسا ستعوّض حكم الأتراك بحكم محلي، تكون هي طبقة الحضر على رأسه، فقد عرف أعضاء هذه الطبقة بعد فترة قليلة من الاحتلال، أنّ فرنسا جاءت لتبقى، وأنّ أموالهم وأراضيهم صودرت وأصبحت ملكا للدولة الجديدة، وأنّ مساجدهم وزواياهم ومساكنهم قد احتُلّت من الجيش الفرنسي... وهكذا لم يبق أمامهم سوى الشكوى والتذمر وكتابة العرائض والرسائل"[26] ، وهي الواقعة التي تؤكّد كلام الضابط **كافيار** في الرواية، حيث تذمّر من شكاوي **المور** المتكررة عبر العرائض والرسائل.

- **وعن وثيقة الاستسلام** : يسترسل **أبو القاسم سعد الله:** "قال **بورمون** إنّه يقبل اقتراح **حسين باشا** الذي ينصّ على الاستسلام، وبعد التفاوض ومراجعة الباشا وُقّعت المعاهدة التالية يوم 5 يوليو 1830"[27]، والنص الكامل لمعاهدة الاستسلام وارد في المرجع نفسه من الصفحة 46، ويُحيل الباحث **علي محمد محمد صلابي على** ذلك في كتابه (كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي):

"وقّع **الدّاي** في أثناء الليل المعاهدة التي هي عبارة عن شروط استسلام وسُلّمت المدينة فعلا صباح 5 يوليو 1830... ودخل الجنرال **بورمون** المدينة وسكن أحد قصورها"[28]، **فالمور** إذن ومسألة الحظوة المؤقتة التي نالوها من الاحتلال الفرنسي، بالإضافة إلى وثيقة الاستسلام المذكورة في رواية (الديوان الإسبرطي)إذن كلّها حقيقية وتاريخية بشهادة المؤرخين.

إضاءة: تحدّث كاتب الرواية بلسان الضابط الفرنسي **كافيار**، الذي كتب رسالة لصديقه **ديبون** يؤنبه فيها على دفاعه عن المور والأتراك، مذكّرا إياه بالمزايا والأملاك التي مُنحت لهؤلاء **المور**، فَور استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر وقد أراد الكاتب توضيح رؤية أحد الضباط الفرنسيين **للمور**،فهم برأيه لا يستحقون تلك الحظوة لخبثهم ومكرهم، بل ويزيد على ذلك، بقوله أنّ **المور** جنس هجين، بينما الأتراك جنس نقيّ، وبالتالي فإنّ **المور** يتحلّون بصفات سيئة ورثوها عن أمم كثيرة ومنها النفاق والخبث والوحشية والنميمة، أما الأتراك وبرغم حبهم الكبير للمال والسلطة، لكنهم ليسوا منافقين، وهي وجهة نظر ضابط فرنسي متسلط وحقود يتطلّع إلى إذلال **المور** واستعبادهم، ويلوم القائد **بورمون** الذي انخدع بهم، ومال إلى جانبهم ومنحهم ما لا يستحقون، بعد معاهدة الاستسلام التي وقعها الباشا عشية سقوط مدينة الجزائر.

4.2. ضباط فرنسا وجنرالاتها:

استحضر كاتب الرواية عددا من ضباط فرنسا وجنرالاتها، وهي شخصيات تاريخية، شاركت في حملة الاحتلال الفرنسي للجزائر، يقول: "آمنتَ بأنّ العثمانيين سيعودون، وما لبثتَ تروّج لهم حين كانت رسائل الباشا تصلك مقنّعة مليئة بالوعود، ثم لم يحدث شيء، ومرّت السّنة ثمّ السّنة، ورحل **بورمون** منفيّا، وتلاه **كلوزيل** معزولا، ثمّ **بيرتزن**، وهاأنت الآن تتسلّل إلى رصيف الميناء لترى وجه الدّوق **روفيغو** وآخر الملامح التي يحملها عند رحيله وهو الآخر معزولا من الجزائر"[29]، وبالعودة إلى كتب التاريخ، وجدنا أنّها شخصيات واقعية ذُكرت بأسمائها الحقيقية كما يلي:

تطرّق المؤرخ **أبو القاسم سعد الله إلى** شخصية الجنرال **دي بورمون** (**1773/ 1846**) في معرض حديثه عن فشله في قيادة جيش الاحتلال الفرنسي بسبب ظروفه النفسية المتأزمة، قال: "وزاد الأمر سوء أنّ القائد العام **بورمون** قد ترك الحبل على الغارب، ولم يعد يحكم فعلا... وكان **بورمون** متأثرا لوفاة ابنه، وقلقا من الحالة السياسية في فرنسا"[30] لكن يبدو أنّ التاريخ لم يتحدّث عن مسألة نفيه، لتبقى الرواية محافظة على بعدها التخييلي، لأنّنا لا ندري فعلا إن كان رحيل **بورمون** مرتبط بقرار عزله ثمّ نفيه، أم لأسباب أخرى.

يذكر الباحث **علي محمد محمد صلابي** شخصية الجنرال **كلوزيل** (**1772/ 1842**)، من خلال حديثه عن أسباب عزله وتعيين جنرال آخر مكانه يقول: "وإزاء تصرّفات **كلوزيل** الفرديّة، قرّرت الحكومة الفرنسيّة إعادته إلى فرنسا وتعيين خلف له وهو الجنرال **بيرتوزان**"[31] ، فعبارة (تلاه **كلوزيل** معزولا) الواردة في الرواية، تؤكدها عبارة (قررت الحكومة الفرنسية إعادته إلى فرنسا)، لنجد هنا تطابقا بين النهاية التي آلت إليها شخصية **كلوزيل** في الرواية، وتلك التي آلت إليها الشخصية نفسها في التاريخ.

أمّا الجنرال **بيرتوزان** (**1775/ 1847**)، فلم يمض على قيادته زمنا قصيرا حتّى تمّ إعفاؤه من طرف الحكومة الفرنسية، يستطرد الباحث **علي محمد محمد صلابي**: "وأمام تعثّر الأمور قرّرت الحكومة الفرنسيّة في

نهاية 1831 إعفاء الجنرال **بيرتوزان**، وتعيين الدوق **دي روفيجو** خلفا له، وأصيب **بيرتوزان** بذهول واعتبر عمليّة إعفائه إهانة له"[32]، يُلاحظ في النموذج المقتبس من الرواية، أنّ شخصية **بيرتوزان** جاءت معطوفة على شخصية **كلوزيل**، وكأنّها إحالة على أنّ **بيرتوزان** قد تمّ عزله مثلما عُزل **كلوزيل**.

ذكر المؤرخ **أبو القاسم سعد الله** شخصية **بيرتوزان** عندما سرد قائمة الجنرالات الفرنسية، التي تعاقبت على قيادة جيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر، إذ قال: "ومن الذين تولوا خلال السنوات الأربع الأولى بعد **بورمون**، **كلوزيل برتزين**، الدوق **دي روفيغو** و**فوارول**، كلّهم كانوا مهتمّين بمشاريع الاستعمار"[33]، وهي أسماء كان لها حضور فعليّ في تاريخ الحملة الفرنسية على الجزائر.

تحدّث الباحث **علي محمد محمد صلابي**، عن شخصية الجنرال **دي روفيجو** (**1774/ 1833**)، فذكر مرضه الذي تسبب في رحيله عن الجزائر، قال: "وفجأة سقط الدوق **دي روفيجو** مريضا ونُقل لباريس ثمّ مات بعد أشهُرٍ بسرطان الفم، ويُعلّق الشعب الجزائري على ذلك بأنّه انتقام من الله على فظائعه"[34]، فكانت الشخصيات المذكورة في الرواية، كلّها حقيقية ذات بعد مرجعي في كتب التاريخ.

استنادا إلى ما سبق عرضه من نماذج روائية عن (الديوان الإسبرطي)، لاحظنا أنّ الشخصية الروائية فيها، تقترب كثيرا في أبعادها المختلفة من تلك التي عرفناها في الروايات التاريخية، من حيث كونها "تتميّز بأنّها لا تحيل إلا على ذاتها أي أنّها تبقى أسيرة ذاتيتها، وتظلّ بمعزل عن مشاركة القارئ الذي لا يجد قاسما مشتركا بينه وبينها"[35]، بمعنى أنّ القارئ الذي يتلقى نصّا حكائيّا يندرج ضمن الرواية التاريخية، يقوم بعقد مجموعة من المقارنات بينه وبين شخصيات تلك الرواية، فيجد أنّها لا تعبّر إلا عن ذاتها وكأنّها مستقلة بعالمها الخاص الذي تنتمي إليه، فيفقد العمل الروائي بعضا من قيمته التخييلية التي تربط النص بالقارئ.

لكنّ رواية (الديوان الإسبرطي) تنأى عن الرواية التاريخية من ناحية إسناد الأدوار، ففي الوقت الذي تكون فيه الشخصية المرجعية في الرواية التاريخية ذات أدوار مركزية فاعلة، نلاحظ أنّ الكاتب هنا لم يُسند أدوارا بارزة في روايته إلى تلك الشخصيات المذكورة، بالرغم من كونها شخصيات مرجعية، مثلما فعل مع شخصيات (**ديبون**، **ابن ميّار**، **كافيار حمة السلاوي**، **دوجة**) التي هي شخصيات تخييلية يصعب الوقوف عند مرجعيتها، جاءت مشحونة بالأفكار وبالقيم الإنسانية المتفاوتة، فكانت أدوارها مركزية قامت عليها فصول الرواية جميعها، وسُجّل لها حضور فاعل، أسهم في تنامي الأحداث وتطوّرها.

أمّا شخصيات (**بورمون**، **كلوزيل**، **بيرتوزان**...) وهي شخصيات مرجعية في الرواية، حضرت كنماذج ثانويّة، تكاد تكون مُفرغة من عنصر الصراع الدرامي الذي يتحكّم في عمليّة التطوّر الحكائي وحبك الأحداث، فكانت شخصيات مساعدة ذات وظائف محدودة.

وبالعودة إلى آراء بعض الباحثين والنقاد، كالباحث **محمد القاضي**، عندما قال: "بأنّ الرواية التاريخية تزاوج عادة بين الشخصيات التاريخية والشخصيات المتخيلة"[36]، والباحث **سعيد يقطين**، بقوله: "إنّ الرواية

التاريخية هي عمل سردي يرمي إلى إعادة بناء حقبة من الماضي بطريقة تخييلية حيث تتداخل شخصيات تاريخية مع شخصيات متخيلة "[37]، وهو نفسه يؤكّد في موضع آخر: "أنّه في الرواية التاريخية تكون الأحداث والمواقف قد حدثت فعلا، ويمكن تأكيد ذلك بالعودة إلى الوثائق والكتب التاريخية، أمّا في الرواية غير التاريخية، تكون الأحداث والمواقف محتملة الوقوع، حتى وإن كانت هناك مؤشرات تشي بإمكانية وقوعها[38]، ويقصد بالرواية غير التاريخية هنا، الرواية الواقعية، بالعودة إلى آراء هؤلاء، نجد أنّ الرواية التاريخية تستند في بعض عناصرها الفنية إلى التخييل، لكنّ دعامتها الأساسة هي المرجع، في حين أنّ الرواية الواقعية تستند أيضا في بعض عناصرها الفنية إلى المرجع ولكنّ دعامتها الأساسة هي التخييل.

يمكن القول من هذا المنطلق، أنّ رواية (الديوان الإسبرطي) تجمع بين الرواية التاريخية والرواية الواقعية من ناحية استحضارها لشخصيات حقيقية ذات بعد مرجعي، وأخرى تخييلية يصعب الجزم بواقعيتها، ولكنّها اقتربت أكثر من الرواية الواقعية التي تعتمد التخييل الأدبي أكثر من اعتمادها على المرجع.

إضاءة: يُلاحظ في المقطع الأول من الرواية، أنّ الكاتب استدعى شخصيات مختزنة في الذاكرة، كل واحدة منها ارتبطت بمرحلة حاسمة من تاريخ الجزائر، وكلّ منها لها حمولتها الفكرية وحضورها الخاص وأثرها في تلك الحقبة الزمنية وبالنظر في كتب التاريخ، وجدنا تفصيلا وإسهابا وحرصا على السيرورة الزمنية في الحديث عن تلك الشخصيات، فيما تعلّق بقيمها الإنسانية وأحوالها النفسية ومكانتها الاجتماعية... لكنّ الكاتب في الرّواية، لم يذكر سوى اسم الشخصية والمصير الذي آلت إليه في النهاية، بشهادة التاريخ، مراعيا في ذلك القيمة الجمالية لاستدعاء الشخصية في الرواية، من ناحية إضاءة جوانب خفيّة من حياتها الواقعيّة، في تعبير موجز وحامل للدلالة، وهو ما يطلق عليه **سعيد يقطين** مقولة: الوعي بالسرد، وهو وعي منوط بالرؤية الفنيّة، وبأسلوب التعبير ونمط الكتابة، ولو سلّمنا بصحّة الرأي القائل بأنّ "الرواية التاريخية يتجاذبها هاجسان، أحدهما الأمانة التاريخية التي تقضي عليها بألّا تُجافي ما تواضعت عليه المصادر التاريخية من قيام الدول وسقوطها واندلاع الحروب والوقائع المأثورة، والآخر مقتضيات الفنّ الروائي من قبيل: نمط القصّ المفضي إلى الانفراج، والتبئير على شخصية أو أكثر..."[39]، سنجد أنّ رواية (الديوان الإسبرطي) لم تكن رواية تاريخيّة بقدر ما كانت واقعيّة تستند إلى التاريخ، فالعمليّة السرديّة فيها لم تكن إسقاطا مطابقا للخطاب التاريخي، أعادت كتابته، بمعنى تأريخه كما جاء في نصوصه الأصيلة، بل كانت "أتونا انصهر فيه العنصر التاريخي مع عناصر أخرى أسهمت جميعا في بناء الكون التخييلي للرواية"[40]، مع احتفاظها بخصوصيتها الأسلوبية والفنية واللغوية.

5.2. مسألة الديون وحادثة المروحة:

تُعدّ حادثة المروحة من أهمّ الأحداث التاريخية التي غيّرت مصير الجزائر، حيث كانت سببا مباشرا في احتلالها لأزيد من قرنٍ، وقد وردت تلك الحادثة في رواية (الديوان الإسبرطي) كما يلي:

"قد أُهين شرف الفرنسيين حينما ضُرب القنصل بمروحيّة الباشا ولن تسمح غِيرة هذه الأمّة باستعباد المسيحيين في أراضي المحمّديين... لم يكن هناك الكثير من الحجج التي يحملها النّاس في عقولهم، لكنّهم متشبّثون بها، هل كانوا مثلا يعرفون سيرة القنصل؟"[41]، ولعلّ السؤال الذي طرحه الكاتب هنا على لسان الصحفي الفرنسي **ديبون**، إشارة منه إلى أنّ للقنصل سيرةٌ غامضة تستحقّ الاطّلاع عليها قبل الحكم له أو عليه، وفي هذا المقام، يمكن القول أنّ التاريخ يشهد على وقاحة القنصل **ديفال** وتصرفاته المشبوهة، يقول **مبارك الميلي** نقلا عن المؤرخ الفرنسي **شارل جوليان**: "ويكفي أن نسوق في هذا المجال ما قاله المؤرّخ الفرنسي **شارل اندري جوليان** في القنصل **ديفال**، فهو يؤكّد أنّه كان رجلا مشبوها... لقد اكتسب من المرونة والخنوع المغرض والمناورات أكثر ما اكتسب من خبرة ديبلوماسية، وكان مشهورا في الجزائر بأنّه رجل فحشاء"[42]، وعليه فإنّ دهاء القنصل ومكره، جعلاه يُميل الرأي العام الفرنسي وحكومته إلى جانبه مطالبا بضرورة ردّ اعتبار فرنسا من خلال تقديم اعتذار رسمي من طرف الدّاي الجزائري.

وقد فصّل الكاتب في تلك الحادثة ضمن مقام آخر في الرواية حيث كتب:

"أقبل القنصل الفرنسيّ **دوفال**، تقدّم بخطوات وهنّأ **الباشا**، فردّ التهنئة ثم سأله: لماذا تأخّر ملككم في إيفاء الديون ولماذا لا يجيب على رسائلي العديدة؟

تفوّه القنصل بما أدهش الجميع: الملك في باريس لا يلتفت إلى شخص مثلكم.

ولم ينتبه الباشا إلى نفسه إلا وهو يقف، ومن ثمّ يضرب القنصل بالمروحة التي كانت بيده، فهمّ القنصل بسلّ سيفه لكن الحراس قبضوا عليه... ولم يمض إلّا شهر واحد حتى رأينا أربع سفن فرنسية رست في ميناء المحروسة والتحق بها القنصل في اليوم الموالي، ومن هناك وصلت الرسالة إلى الباشا: (عليكم بتجديد عهد الأمان لقنصلنا وأرسلوا أعيان المدينة ليعتذروا للقنصل المرابط بالسفينة، وإذا لم يتحقق هذا فليست لكم منّا إلا العداوة)... الكلّ كان يعرف القنصل، حتى من الفرنسيين، يجمع على وقاحته وسوء طبعه، ورآه الباشا شخصا يغيّر لونه حسب ما تقتضيه مصالحه الخاصة"[43] يُلاحظ، من خلال هذا العرض السردي، أنّ الكاتب قد صوّر المشهد بكلّ حيثياته، حيث جاء خطاب الباشا حادّا جديّا، كما كان ردّ القنصل فظّا يتضمّن كثيرا من الوقاحة والجرأة، أمّا اللافت في هذا المشهد، أنّ الكاتب صوّر الحادثة على أنّها (ضربٌ بالمروحة) من طرف الباشا للقنصل، لكنّ الخطاب التاريخي يتردّد في تأكيد (حادثة الضرب) من (التلويح بها) فقط، فالباحث والمؤرّخ **مبارك الميلي**، يرى بأنّ الدّاي تحرّك من مكانه غاضبا فلامست المروحة وجه القنصل، عن غير قصد، يقول: "وفي عيد الفطر، ذهب **ديفال** لتهنئة الدّاي كما جرت التقاليد بذلك... سأله الدّاي إن كان لم يتلقّ جوابا على الرسالة التي كان قد وجّهها إلى الحكومة الفرنسيّة حول قضيّة **بوشناق وباكري** (اليهوديّين)، فما كان من القنصل إلّا أن أجابه بقصد الاستفزاز: إنّ ملك فرنسا لا يتنازل لمراسلة داي الجزائر... وكان الدّاي جالسا، والقنصل **ديفال** واقفا

على بعد مسافة محترمة، فصرخ فيه: أخرج يا روميّ، وتحرّك الدّاي حركة غضب وسخط، لمست من جرّائها ريشة في طرف المروحة القنصل، فاغتنم القنصل هذه الفرصة، وانسحب مهدّدا أنّه سيبلغ كلّ شيء لحكومته"[44].

أمّا الباحث والمؤرّخ **أبو القاسم سعد الله** فيرى أنّ الدّاي تعمّد ضرب القنصل لوقاحته وجرأته في الردّ، يقول: "فما كان من الداي إلا أن فقد توازنه وضرب القنصل على وجهه بمروحة من الريش وأمره بمغادرة المكان"[45]، في حين يرى باحثون آخرون، أنّ الضّرب كان خفيفا، يعبّر عن ردّة فعل سريعة وغاضبة، مثلما يُورد الباحث **محمد خير فارس** في كتابه (تاريخ الجزائر الحديث): "وفي عيد الفطر 1827، جرت المقابلة المثيرة بين **الدّاي** والقنصل **دوفال**، وكان الدّاي شديد التأثّر من عدم الردّ على رسائله المتعلّقة بديون اليهوديّين... وفي كتاب **الدّاي** إلى السلطان، أكّد أنّه وجّه للقنصل عبارات لبقة محتفظا بموقف ودّي، وأنّه سأله لماذا لم يصل جواب على رسائلي المكتوبة والمرسلة إلى حكومتك... يقول **الدّاي**: إنّ القنصل المذكور بعناده وعجرفته، أجاب بعبارات وقحة، وأنّ ملك وحكومة فرنسا لا يمكن أن ترسل أجوبة على الرسائل التي أرسلتها إليها، وتجرّأ فتلفّظ بكلام سيّء عن الدين الإسلامي ويمسّ بشرف السلطان... ويقول **ديفال** في تقريره أنّ **الدّاي** قام من مقعده حينذاك ووجّه له ثلاث ضربات من كشاشة الذباب وطلب منه الانسحاب، ولكن **الدّاي** يقول في كتابه أنّه لم يستطع تحمّل هذه الوقاحة والإهانة التي تتجاوز حدود التحمل فضربه مرّتين أو ثلاث مرّات ضربا خفيفا بكشّاشة الذباب"[46]، وعليه فإنّ كتب التاريخ لم تحدّد فعليّا ما إذا كان **الدّاي** قد ضرب القنصل ضربا فعليّا مقصودا، أم أنّه لوّح بمروحته غاضبا، فأصابت وجه القنصل عن غير قصد، لكنّ الكاتب في الرواية، لا يمكن له أن يفصّل في هذه الحادثة ويحسّن ما إذا كانت ضربا أم تلويحا، حتّى لا ينفلت من دوره كأديب ليصبح مؤرّخا، فآثر الاشتغال على أفقه المعرفي، وصوّر المشهد كما ورد في أغلب كتب التاريخ، وهو الضرب لا التلويح.

يقول الكاتب في روايته عن مسألة الدّيون: "ومنذ أضحى **حسين باشا** على الجزائر انشغل بقضيّة ديون الفرنسيين في البدء كانت بين اليهوديَّين والفرنسيين، ولأنّ جزء من الديون كان لخزينة المدينة، لجأ اليهوديّان إليه ليستخلصها لهما ثم فوجئ بأنّه ليس وحده الذي يُطالبهما، بل إنّ تجّارا كثيرين من (مرسيليا وباريس) كانوا يطالبونهم كذلك بديونهم، ثم فجأة تأتيه أخبار اقتصاص الحكومة الفرنسية أموال تُجّارها من أموال اليهوديَّين، ثم سلّمتهم باقي المال، وأُشيع أنّ القنصل هو من توسّط لهم، كان الباشا يظنّ أنّه بدفاعه عنهما يدافع عن حقّ المحروسة، أمّا حين استفاق فقد كان اليهوديّان قد فرّا إلى باريس وأضحيا مواطنين فرنسيين، ولم يبق للباشا حينها إلا أن يراسل الملك الذي لم يُجبه وبقي على حاله ساخطا على القنصل حتى أقبل العيد وحدث ما حدث"[47].

وهو الأمر الذي أثبته المؤرّخ **مبارك الميلي** بقوله أنّ الديون التي كانت في ذمّة فرنسا نحو شركة اليهوديّين، قد تضخّمت بشكل لافت، ممّا دفع بهما إلى التلويح للوزير الفرنسي الدّاهية **تاليران** وللقنصل الفرنسي في الجزائر **ديفال** بإعطائهما قدرا من الدّيون إن تمكّنا من إقناع الحكومة الفرنسيّة بتسديدها، "وقد تدخّل بالفعل **تاليران** في

القضيّة وحمل الحكومة الفرنسيّة على تسديد الديون، لكنّ فرنسا دفعت عدّة أقساط إلى عائلة **بوشناق وبوخريص** (الذي تجنّس بالجنسية الفرنسيّة في هذه الفترة وأصبح يدعى **باكري**) دون أن تدفع شيئا للخزينة الجزائريّة، وأبقت نصيبا من الديون تحت الرهن في حالة ما إذا كان هناك أشخاص أو شركات لهم دين على **بوشناق وباكري**... وباختصار أنّ هناك مبالغ ترجع قانونا وواقعا للخزينة الجزائريّة، لكنّ فرنسا دفعتهما **لباكري وبوشناق**، وقد فرّ **بوشناق** بعد تسلّمه المبلغ إلى (ليفورن بإيطاليا)، بينما تجنّس **باكري** بالجنسيّة الفرنسية ولم يرجع إلى الجزائر"[48]، والجدير بالذكر، أنّ تلك المسألة المهمّة قد وردت في أغلب كتب التاريخ، حتّى إنّ الباحث **محمد خير فارس** روى هو الآخر القصة: "ولكي يضمن اليهوديّان الحصول على ديونهما نجحا ببراعة في تحويل هذه الديون من ديون خاصّة إلى دين حكومي، وقد أقنعا **الدّاي** (بطلب من **تاليران**، والمتواطئ معهما)، أنّهما لن يستطيعا أن يدفعا له، أي **للدّاي**، ما لم تدفع لهما الحكومة الفرنسية... وقد نجح اليهوديّان في الحصول على حوالي أربعة ملايين فرنك من ديونهما... وكان **الدّاي** يجهل أمر المفاوضات التجاريّة في باريس والذي كان يعتقد بأنّ حلّ هذه المسألة سيكون لصالحه، ولكنّ اليهوديّيَن لم يدفعا **للدّاي** شيئا من المبلغ الذي حصلا عليه، وبالرغم من تأييد **تاليران** فإنّ اليهوديّيَن لم يستطيعا الحصول على باقي ديونهما، لأنّ العلاقات الجزائريّة الفرنسية ساءت في عهد الإمبراطورية، وكان موضوع الديون إحدى النقاط الرئيسيّة التي تعكّر صفو العلاقات الفرنسية الجزائرية..."[49]، وقد غضب **الدّاي** غضبا كبيرا جرّاء تأخّر الدّفع لأنّ البضائع التي سلّمها اليهوديان لفرنسا كانت له في معظمها، وقد انتهز اليهوديان فرصة توتّر العلاقات الفرنسية بالجزائرية... وكان من حظّهما أن تمّ تعيين الدّاهية **ديفال** قنصلا فرنسيا في الجزائر، ليكون حليفهما في مخطّطهما الدّنيء.

وفيما تعلّق بالإنذار الموجّه لداي الجزائر بعد حادثة المروحة، والذي أشار إليه كاتب الرواية، في المقطع المذكور أعلاه، يقول **مبارك الميلي**: "وصل الكومندان **كولي** إلى الجزائر في الحادي عشر من جوان، ووجّه إلى **الدّاي** بعد ذلك بأربعة أيّام إنذارا... يجب أن يتوجّه **الدّاي** إلى الباخرة الفرنسيّة ويقدّم وكيل الخرج علانيّة وباسم **الدّاي** اعتذاراته إلى القنصل العامّ... وإلّا تبدأ الحرب ضدّ الجزائر"[50]، كما أُثيرت القضية في كتاب (تاريخ الجزائر الحديث) **لمحمد خير فارس**: "وجّهت فرنسا قوّة بحريّة بقيادة الكابتن **كوليه**، وحمّلته إنذارا **للدّاي** بوجوب تقديم ترضية رسميّة عن هذه الإهانة وسمحت الحكومة الفرنسية **لكوليه** أن يختار واحدا من ثلاث إجراءات للاعتذار: أن يذهب **الدّاي حسين** نفسه إلى مقرّ القنصليّة الفرنسية في زيارة رسميّة، ويقدّم للقنصل هناك اعتذارا رسميّا، أو أن يستقبل القنصل الفرنسيّ بقصره في حفل رسميّ ويقدّم له الاعتذار، أو أن يوفد وفدا رسميّا برئاسة وزير البحريّة والشؤون الخارجيّة إلى قائد الحملة البحريّة على ظهر سفينته ليقوم باسم **الدّاي** بالاعتذار الرسميّ للقنصل... وإلّا دخلنا في حالة خصومة"[51]، ولم تتطرّق كتب التاريخ العربية فقط إلى تلك القضية، بل تحدّث عنها أيضا مؤرّخون وباحثون أجانب.

ومن هؤلاء نذكر، الكاتب والمحامي الأمريكي **ويليام سبنسر** حيث كتب عن مسألة الإنذار والمطالبة باعتذار الجزائر رسميّا من فرنسا، فقال: "وحوالي مائتين وخمسين بعد ذلك أرسل إلى الجزائر رجل فرنسي آخر هو **كوليه collet** قائد وحدة بحرية فرنسية من طرف **شارل العاشر**، وذلك في سنة 1827، بعد حادثة المروحة، فقدّم الإنذار التالي إلى حاكم الجزائر: لقد غضب صاحب الجلالة من الخروج عن ضبط النفس الفظيع والمثير الذي قد ارتكب ضدّه، وهو يطالب بإصلاح سريع جدّا وإرضاء علني يوصف كما يلي: اعتذار على رؤوس الأشهاد... رفع العلم الفرنسي فوق قلاع الجزائر وقصر **الدّاي** وتحيّته بمائة طلقة وطلقة واحدة"[52]، وبعد تلك الشهادات والتوثيقات التاريخية لحادثة المروحة ومسألة الديون التي كانت ضمن الذرائع المباشرة لاحتلال الجزائر، يمكن القول أنّ رواية (الديوان الإسبرطي) قد استمدّت قدرا كبيرا من خطاباتها ومواضيعها السردية عن التاريخ، من خلال تعرّضها لأحداث مركزية كان لها تأثير بالغ في المشهد التاريخي الواقعي.

وإذا كانت "الرواية التاريخية تنهض على أساس مادة تاريخية، لكنّها تُقدّم وفق قواعد الخطاب الروائي القائم على البعد التخييلي، مهما كان واقعيا أو حقيقيا"[53]، فإنّ ما وجدناه ضمن هذا المسرود الروائي من قصص تاريخية، هيمنت على عملية السرد، لم تكن مجرّد فحص روتينيّ لبعض الوثائق التاريخية، بل وجدنا فيها التزاما واضحا بقانون الرواية، من الناحية الفنيّة، كالاعتماد على عناصر التخييل، والمفارقات الزمنية وقوّة الحبكة الفنية، وغيرها ممّا أضفى على العمل الروائي بعدا جماليّا وتشويقا ممتعا، يقلّ حضوره في الخطاب التاريخي، وبالتالي يمكن الجزم بأنّ (الديوان الإسبرطي) رواية واقعيّة تنهل من المرجع واقعيته ومن التخييل فنيّته.

إضاءة: أسهبت كتب التاريخ في ذكر حادثة المروحة ومسألة الديون التي تلاها احتلال دام أكثر من قرن من الزمن، وقد وجدنا في رواية (الديوان الإسبرطي) عرضا موجزا لتلك الوقائع، ورد في شكل ومضات خاطفة أضاءت جوانب غامضة وخفيّة من تاريخ الجزائر، بطريقة فنيّة تلامس منطق التخييل الروائي وجماليته، لاسيما أنّ "الرواية هي خطاب جمالي تُقدّم فيه الوظيفة الإنشائيّة على الوظيفة المرجعيّة"[54]، فالشخصيات التي استحضرها الكاتب، هي شخصيات حقيقية (اليهوديان، القنصل، الباشا..)، والأحداث بدورها جرت فعلا على أرض الواقع، لكنّ سرد تلك الوقائع، يختلف بدرجة كبيرة بين خطاب الرواية الواقعيّة والرواية التاريخية، فعلى مستوى الزمن مثلا، نجد أنّ أحداث الرواية تخضع لمفارقات زمنية متعددة كالاسترجاع والاستباق والحذف وغيرها، الأمر الذي نلمسه بدرجة أقلّ في الرواية التاريخية حيث يحرص كُتّابها على خطيّة الزمن وامتداده أفقيّا عبر متوالية سرديّة تسير فيها الأحداث بشكل مستمرّ غير متقطّع أمّا فيما يتعلّق بالشخصية وطريقة حضورها، فنلحظ أنّ هذه الرّواية قد أحاطت بأحوالها وبمرجعيتها، كما اهتمّت بوظائفها في العمليّة الحكائية، من خلال وصفها بدقّة ورسم أدوارها في تنامي الأحداث وتطوّرها بكلّ حرية، بخلاف الرواية التاريخية الذي تكون فيه الشخصيّة ثابتة ولا تمثّل إلا ذاتها، ولا يستطيع المؤرخ التصرف في حمولتها الفكرية ولا في تحديد أدوارها، ولا يتوقّع ما تفكّر فيه تلك الشخصية، بل يتصرف معها ككيان مستقلّ قابل للوصف استنادا على معطيات واقعية، ولا يتحكّم في تحديد

دورها بالنسبة لعملية الحكي، أمّا عن الحدث الروائي، فقد حضر بصورة مطابقة، تقريبا للواقع، كما وجدنا أنّ الكاتب حريص على دمج القارئ في أجواء السرد من خلال طابع التشويق الذي يحفّه، والذي يكون حضوره أقلّ مقارنة بالرواية التاريخية.

6.2. عدد الجنود:

ورد في الرواية حديثا عن عدد الجنود الذين واجهوا الجيش الفرنسي لحظة وصوله شاطئ سيدي فرج كما يأتي: "وهاجَمْنا قبلهم في سيدي فرج، كنّا في ثلاثمائة فارس فقط، كثير من أهالي المحروسة والعربان وقليل من اليولداش"[55]، وقد أكّد هذا العدد من الجنود، المؤرخ **أبو القاسم سعد الله** بقوله: "وفي اليوم الذي نزل فيه الجيش الفرنسي في سيدي فرج لم يكن هناك لا مدافع ولا خنادق، ولم يكن لدى **الآغا إبراهيم** أكثر من 300 فارس"[56]، واليولداش هم فرقة عسكرية تركية مسلمة أسّسها **خير الدين باشا** في الجزائر، عُرفت بالشجاعة والقوة والمهارة، وكانت لها امتيازات كثيرة، لكن الرتب العسكرية العليا فيها كانت تُمنح للأتراك والنصارى الذين اعتنقوا الإسلام، أمّا الجزائريين والكراغلة فكان يُسمح لهم الانضمام للفرقة دون امتيازات أو ترقية.

إضاءة: يستذكر الكاتب من خلال شخصية **حمة السيلاوي** عدد الجنود والفرسان الذين واجهوا القوات العسكرية الفرنسية وقت وصولها لميناء سيدي فرج، وكانوا حوالي 300 فارس، أغلبهم من الأهالي، وبعضهم من اليولداش، ثمّ إنّ الكاتب بحديثه عن الفرسان الثلاثمائة، كان دقيقا في تحديد هويّاتهم المختلفة، وكأنّه يرمي إلى فكرة أنّ أغلب من تجهّز لقتال العدوّ كان من الأهالي والعربان، في حين أنّ اليولداش الأتراك كان عددهم قليلا، إشارة منه إلى تهاون الأتراك في الدفاع عن الجزائر، وهو الأمر الذي لم نجد له موضعا تفصيليا في كتب التاريخ، ممّا يعزّز فكرة أنّ الكاتب يرمي إلى أنّ للأتراك دور باهت في مقاومة الاحتلال الفرنسي.

7.2. تحويل جامع كتشاوة إلى كنيسة:

يتّفق كثير من المؤرّخين والباحثين على أنّ احتلال فرنسا للجزائر كان يهدف إلى تنصيرها بالدرجة الأولى، ثمّ تأتي بقيّة الأسباب الأخرى للاحتلال، وقد أشار كاتب الرواية إلى واقعة مهمّة ومؤلمة في الآن ذاته من تاريخ ذلك الاحتلال وهي تحويل المساجد إلى كنائس، يقول: "ولم يختلف الأمر مع **جامع كتشاوة**، علت ضجّة الناس ما إن سمعوا قرار تحويله إلى كنيسة... كان الدوق **روفيغو** حينها قد فصل في الأمر، ثم أحاط به الجنود من كلّ جانب، واعتصم المصلّون به يرفضون مغادرته... ترى كيف سيكون شعور أيّ مسيحيّ لو حُطّمت أبواب **سانت شابيل**، أو **القلب المقدّس**، أو حتّى كنيسة **مريم العذراء**، وهو بداخلها مستغرق في الصلاة..."[57]

ذُكرت هذه الواقعة في أغلب كتب التاريخ التي بحثت في فترة احتلال فرنسا للجزائر ومنها كتاب (كفاح الشعب الجزائري ضدّ الاحتلال الفرنسي) للباحث **علي محمد محمد صلابي**، إذ كتب: "أصدر الدوق **دي روفيجو** أمرا يوم 1831/12/17، بإخلاء **جامع كتشاوة** وتحويله إلى كنيسة مركزيّة، وهاجم الجيش 4000 من السكان كانوا معتصمين به احتجاجا على هذا القرار رافضين تسليمه"[58]، ولم يكن **جامع كتشاوة** فقط ما حُوّل

إلى كنيسة، بل تلته مساجد أخرى كثيرة يفوق عددها الثلاثمائة مسجد، وبعضها تعرّض للهدم والتخريب أو التحويل إلى مؤسّسات فرنسية ذات أغراض متعددة.

إضاءة: تطرّق الكاتب إلى مسألة مهمّة وقعت مباشرة بعد سقوط مدينة الجزائر، وهي تحويل المساجد إلى كنائس وأوّلها **جامع كتشاوة**، وقد ذكرت كتب التاريخ أنّ الجنود الفرنسيين واجهوا مقاومة عنيفة من السكان المحليين احتجاجا على محاولة تدمير أهمّ رمز من رموز هويتهم وهو الإسلام، وقد لمسنا في المقطع الذي أورده الكاتب في رواية (الديوان الإسبرطي) تلميحا إلى همجيّة الجنود الفرنسيين أوّلا، وإلى الأسباب الحقيقية التي دفعت بفرنسا إلى احتلال الجزائر ثانيا وفي مقدّمتها الرغبة في تنصير أهالي الجزائر وردّهم عن دينهم الإسلامي رغما عنهم.

8.2. اللّجنة الإفريقية:

هي لجنة أرسلتها الحكومة الفرنسية لتقييم الأوضاع في الجزائر بعد احتلالها مباشرة، وقد ذُكرت في الرواية: "بعد أيّام قليلة ستأتي لجنة من باريس لتحقّق في أوضاع الجزائر، وإذا اقتنعت بعدم جدوى بقاء الجيش بها سيرحلون"[59] ويعتقد بعض المؤرّخين أنّ هناك عدّة أسباب جعلت الحكومة الفرنسية ترسل تلك اللّجنة، لتقديم تقرير عن أوضاع البلاد يتضمن اقتراحات واضحة حول مستقبلها، "منها ضغط الرأي العام الأوربي على فرنسا للإعلان عن موقفها الرسمي من الاحتفاظ أو التخلي عن الجزائر... حيث وافق ملك الفرنسيين، **لويس فيليب**، على هذه اللّجنة التي أصبحت تُعرف باسم اللّجنة الإفريقية، بتاريخ 7 جويلية 1833... وقد أعلن رسميّا أنّ هدف اللّجنة هو جمع المعلومات التي تنير الحكومة عن حالة الجزائر الحاضرة وعن مستقبلها"[60]، وقد تحدّث الباحث **علي محمد محمد صلابي** عن اللّجنة نفسها فقال: "أرسل البرلمان الفرنسي لجنة للتحقيق في الجزائر قضت فيها شهري سبتمبر وأكتوبر 1833"[61]، والحقيقة أنّ أسباب إرسال تلك اللّجنة لم تكن واضحة، والأرجح أنّها شُكّلت لأغراض سياسية تتعلّق بالشأن الدّاخلي لفرنسا.

إضاءة: يُقال أنّ خطاب الرواية، وإن بدا تخييليا، غير أنّ البعد المرجعي لا يكاد ينفصل عنه، ورواية (الديوان الإسبرطي) تضمّنت كثيرا من الأحداث والشخصيات التاريخية التي حضرت بطريقة فنيّة لافتة، كما أعطت إشارات مرجعيّة محفّزة على البحث والكشف، فمن خلال اطّلاعنا على بعضٍ من كتب التاريخ، وجدنا أنّ اللجنة التي قصدها الكاتب في النموذج الروائي السابق، هي ذاتها اللّجنة الإفريقية التي أرسلتها الحكومة الفرنسية زاعمة أنّها ستحقّق في مسألة احتلال فرنسا للجزائر ثمّ تقرّر مصير هذا الاحتلال فور انتهاء التحقيق، لكنّ المؤرّخين يرجّحون فكرة أنّ الهدف الحقيقي من إرسال تلك اللجنة هو إرضاء الرأي العام الأوربي وجمع أكبر قدر من المعلومات عن الجزائر.

4. خاتمة:

يُلاحظ ممّا سبق رصده من مرجعيّات تاريخية في رواية (الدّيوان الإسبرطي)، أنّها رواية حافلةٌ بكثير من التفاصيل التاريخية التي وقعت في الماضي، وهو ما يعزّز فكرة أنّه "كلّما كانت معرفة الكاتب بفترة ما أعمق وأكثر تأريخيّة على نحو أصيل، كان أكثر حريّة في التحرّك داخل موضوعه"[62]، فالرواية هنا لم تكن وثيقة تاريخية بالمعنى الحقيقي والصارم، بل كانت مُؤطّرة فنيّا ببعض المعطيات التاريخية، التي عضّدت خطابها السردي بمحمولات فكرية وثقافية معيّنة، وهي تندرج ضمن الكتابة الروائية التي "تعتمد أسلوب التخييل التاريخي القائم على تأسيس الحكاية السردية على حوادث ووقائع تاريخية"[63]، وتأسيسا على ما سبق طرحه، ربّما جاز لنا تحصيل جملة من النتائج أهمّها:

- يعدّ التاريخ مادّة فاعلة تؤثّث للنص الروائي الحديث بأبعاد ثقافية ومعرفيّة ثريّة ومتنوّعة.
- تمكّنت رواية (الدّيوان الإسبرطي) من الجمع بين الجانب الواقعي التاريخي وبين الجانب الجمالي التخييلي في نصّ واحد، دونما إخلال بالقوانين الفنيّة للكتابة الروائية.
- تعدّدت وجهات النظر في هذه الرواية، وتفاوتت الرؤى الإيديولوجية حول فترة انتقالية من تاريخ الجزائر، بدأت بتلاشي الهيمنة العثمانية وانتهت ببداية الاحتلال الفرنسي، ممّا يرجّح فكرة أنّ رواية (الدّيوان الإسبرطي) هي رواية واقعيّة استندت إلى أحداث مرجعيّة غير مزيّفة، وعالجتها بطريقة تخييلية تظهر فيها جماليّة السرد وانسجام مكوّناته الفنيّة، حيث إنّها انفلتت من صرامة الرواية التاريخية التقليدية على مستوى الأسلوب الفنّي أوّلا والبناء السردي ثانيا وعلى مستوى فاعليّة التلقّي ثالثا.
- لا يبدو الكاتب في هذا المسرود الفنّي حافلا بالواقع التاريخي بقدر احتفائه بالواقع الروائي، فمن خلال استنطاق بعض الشخصيات الغابرة والوقوف عند محطّات تاريخية متنوّعة، لم يسترسل الكاتب في عرض تفاصيلها، كما لم ينشغل كثيرا بوصفها، مقارنة مع اهتمامه اللافت بتتبّع المواقف المتباينة منها، وذلك من خلال تركيزه على الحوار والمناقشة وتبادل الآراء بين شخصيات الرواية، ثمّ تمرير بعض الأفكار التي يمكن إسقاطها على الواقع الراهن.

5- الهوامش:

[1]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ط1، دار ميم للنشر، الجزائر، 2018، ص185.

[2]. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، دط، مكتبة النهضة الجزائريّة، الجزائر، 1964، ص91.

[3]. رضا عطية، التخييل التاريخي في الديوان الإسبرطي، مقال منشور ضمن المجلة الالكترونية: نزوى http://www.nizwa.com 18 يوليو 2020.

[4]. محمد القاضي، الرواية والتاريخ، دراسة في تخييل المرجعي، ط1، دار المعرفة للنشر، تونس، 2008، ص181.

[5]. محمد صابر عبيد، سيمياء التشكيل الروائي، الجمالي والثقافي في نُظم الصّوغ السردي، ط1، دار فضاءات، عمان، الأردن، 2015، ص62.

[6]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص 15/13.

[7]. المصدر نفسه، ص 25/24.

[8]. مرسال آمري، استغلال عظام المسلمين في تصفيّة السكّر، تعريب: عبد الجليل التميمي، المجلّة التاريخية المغربية، العدد الأوّل، تونس، جانفي 1974 ص9

[9]. المرجع نفسه، ص9.

[10]. علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر (تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى)، ط1، دار المعرفة، بيروت، 2017، ص277.

[11]. المرجع نفسه، ص329.

[12]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص27.

[13]. محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، (دط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2002، ص108/107.

[14]. إلياس أبو شبكة، تاريخ نابليون بونابرت (1769، 1821)، ط1، مؤسسة هنداوي للنشر، المملكة المتحدة، 2020، ص315/314.

[15]. المرجع نفسه، ص 315.

[16]. المرجع نفسه، ص 317.

[17]. المرجع نفسه، ص 318.

[18]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص33.

[19]. إلياس أبو شبكة، تاريخ نابليون بونابرت (1769، 1821)، ، ص 324.

[20]. المرجع نفسه، ص135.

[21]. المرجع نفسه، ص103.

[22]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص34.

[23]. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ط1، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص252.

[24]. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دت، ص 98.

[25]. علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر، ص299/298.

[26]. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ص 67/65.

[27]. المرجع نفسه، ص 46.

[28]. علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر، ص287.

[29]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص49.

[30]. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال ، ص 57.

[31]. علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر، ص326.

[32]. المرجع نفسه، ص328.

[33]. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ص 63.

[34]. علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر ، ص330.

[35]. محمد القاضي، الرواية والتاريخ، دراسة في تخييل المرجعي ، ص102.

[36]. المرجع نفسه، ص36.

[37]. سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، ط1، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2012، ص159.

[38]. يُنظر، المرجع نفسه، ص164.

[39]. محمد القاضي، الرواية والتاريخ، دراسة في تخييل المرجعي، ص25.

[40]. المرجع نفسه، ص150.

[41]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص103.

[42]. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، ص274.

[43]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص131

[44]. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، ص273/272.

[45]. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص255.

[46]. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط1، سلسلة دراسات تاريخ شمال إفريقيا الحديث، جامعة دمشق، 1969، ص156.

[47]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص132.

[48]. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، ص271.

[49]. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ص150/149.

[50]. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، ص274/273.

[51]. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ، 1969، ص159/158.

[52]. وليم سبنسر، الجزائر في عهد ريّاس البحر، تر، عبد القادر زبادية، دط، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص 201/200.

[53]. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال ، ص159.

[54]. محمد القاضي، الرواية والتاريخ، دراسة في تخييل المرجعي، ص23،24.

[55]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص145.

[56]. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ص 40.

[57]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص277.

[58]. علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر، ص329.

[59]. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ص368.

[60]. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ص 97.

[61]. علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر، ص324.

[62]. جورج لوكاش، الرواية التاريخية، تر، صالح جواد الكاظم، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1986، ص239.

[63]. رضا عطية، التخييل التاريخي في الديوان الإسبرطي (مرجع سابق).

6. قائمة المراجع:

- **المصادر:**

1. عبد الوهاب عيساوي، الدّيوان الإسبرطي، ط1، دار ميم للنشر، الجزائر، 2018.

- **المراجع بالعربيّة:**

1. أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ط1، دار البصائر، الجزائر، 2007.
2. أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دت.
3. إلياس أبو شبكة، تاريخ نابليون بونابرت (1769، 1821)، ط1، مؤسسة هنداوي للنشر، المملكة المتحدة، 2020.
4. جورج لوكاش، الرواية التاريخية، تر، صالح جواد الكاظم، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، 1986.
5. سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، ط1، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2012.
6. علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر (تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى)، ط1، دار المعرفة، بيروت، 2017.
7. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، دط، مكتبة النهضة الجزائريّة، الجزائر، 1964.

8. محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط1، سلسلة دراسات تاريخ شمال إفريقيا الحديث، جامعة دمشق، 1969.
9. محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، (دط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2002.
10. محمد صابر عبيد، سيمياء التشكيل الروائي، الجمالي والثقافي في نُظم الصّوغ السردي، ط1، دار فضاءات، عمان، الأردن، 2015.
11. محمد القاضي، الرواية والتاريخ، دراسة في تخييل المرجعي، ط1، دار المعرفة للنشر، تونس، 2008.

- **المراجع المترجمة:**

1. وليم سبنسر، الجزائر في عهد ريّاس البحر، تر، عبد القادر زبادية، دط، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.

- **المقالات:**

1. مرسال آمري، استغلال عظام المسلمين في تصفيّة السكّر، تعريب: عبد الجليل التميمي، المجلّة التاريخية المغربية، العدد الأوّل، تونس، جانفي 1974.

- **مواقع الانترنت:**

1. رضا عطية، التخييل التاريخي في الديوان الإسبرطي، مقال منشور ضمن المجلة الالكترونية: نزوى http://www.nizwa.com 18 يوليو 2020.